مســـــــــــافر!

سيف الدولة صالح جفال

كان موعدي مع السفر على غير توقع.. وبالقطار!، ورغم سوء الظن به وفقت في الحجز دون عناء

يذكر، وإلى حين مجيء يوم السفر ظللت أمني النفس بمتعة السفر الذي حقا أحبه. وجاء اليوم الموعود، باكرا خرجت وقد حسن مظهري كمن يذهب للقاء حبيب لا أحمل سوى كتاب أخذته كرفيق إذا ما ضنت

الرحلة بالرفاق ويا حبذا الرفيقات، لكني أستبشرجدا في هذه السفرة، لكني أستبشرجدا في هذه السفرة!

وصلت إلى المحطة بأيسر الطرق وجدت القطار متوقفا والناس مضطربون صعودا ونزولا من عرباته

المختلفة الدرجات يتدافعون، لم أنزعج لأني قد حجزت في قمرة بالدرجة الثانية، تناولت مجلة وصحيفة

من مكتبة المحطة أضفتهما إلى كتابي..سرت محازيًا عربات القطار أمر بها

درجة درجة حتى وصلت إلى عربة الدرجة الثانية التي أفضل الحجز فيها فأنا لا أطيق السفر في الدرجات العليا الفاخرة والتي يدعي ركابها أنهم أفضل البشر طرا، أما الدرجات الشعبية فحدث بكل الحرج لأن كل شيء فيها يجري كيفما إتفق بدءا من الحديث العام مرورا بالأكل والشرب وإنتهاءا بدورات المياه إن وجدت.

والدرجة الثانية مثل الطبقة الوسطى لذا أرتاح إليها..

وصلت إلى باب العربة حيث يقف عليه شرطي يصرف الناس عن الدخول بيده كشف، تقدمت منه

وهو ينظر إلي من عل وقال دون أن يتحرك.:

-نعم يا أستاذ؟ أجبته بأني ابحث عن إسمي في هذه العربة.. قاطعني واثقا قبل أن أكمل حديثي.

- هذه العربة محجوزة كلها.خاصة.. ولا أعتقد أن إسمك موجود هنا.قلت له بلطف: لنر الكشف إن سمحت.

مد لي الكشف، مررت بعيني على الأسماء وعند الرقم ١٥ وجدت إسمي. أشرت إليه منتصرا وتهيأت للصعود.الشرطي باحثا عن موقف سلطوي

يمارسه تجاهي منعني من الصعود طالبا إبراز بطاقة هويتي

ففعلت. هنا أفسح لي متنحيا عن الباب لأدخل إلى العربة.ألم اقل لكم أني مستبشر بالسفر هذه المرة؟

في القمرة الأولى وعلى ديباجتها الملصقة على الباب ثمانية أسماء لم أجد إسمي بينهم. عبرت إلى التي

تليها وجدتها خالية تماما إلا من شرطي آخر...أعوذ بالله. وعند القمرة قبل الأخيرة وجدت الرقم ١٥

•والمفترض أن يكون فيه إسمي خاليا من أي إسم! لم أنتبه إلى من بداخل القمرة.. عدت إلى الشرطي مستفسرا

•قال إن ذلك ليس من إختصاصه. عدت إلى القمرة التي لم يكن بابها مقفلا لكني لم أعر الشخص الذي بداخلها إهتماما، وقفت محتارا وأنا أتأبط أشيائي قطع حيرتي خروج من بداخل القمرة، نسيت حيرتي عند رؤية الفتاة التي خرجت من القمرة متجاوزة لشخصي دون أدنى إلتفاتة تمشي بخطوات واثقة محسوبة إلى أن نزلت من العربة..بقيت في مكاني لا أفعل شيئا، قرب ميعاد تحرك القطار.إزدادت حركةالناس سرعة وكثر لغطهم..صفرالقطار،

الغريب أن هذه العربة تكاد تكون خالية رغم إزدحام القطار وأنا لا أجد موقعا لي فيها!! ظهرت الفتاة ثانية عند أول العربة تسير بنفس الخطوات الواثقة تحمل في يدها كيس بلاستيك به فواكه وبعض الأغراض عبرتني الفتاة مرةأخرى بذات الكيفية الأولى! الأمر لا يعنيها، ولا سبيل إلى سؤالها... سؤالها؟؟ فجأة إهتز القطار متحركا فوجئت ترنحت.. سقطت أشيائي على أرضية ممشى العربة لا أحد سواي في الممشى.. هل ابقى هكذا؟؟ لا يمكن تحرك القطار مغادرا المحطة صافرته الثانية

تؤكد ذلك بدأ السفر إذا. لاأصدق. أين إستبشاري بالسفر هذه المرة؟

واجهت القمرة لأول مرة ناظرا إلى داخلها بتركيز ألفيت الفتاة جالسة في منتصف الأريكة تمد ساقيها أمامها وتتصفح مجلة نسائية، لم تكن ترتدي الثوب الكامل لكن زيها كان محتشما وأنيقا، قميص نسائي احمر اللون طويل الأكمام بوردة بيضاء كبيرة ووحيدة مكان القلب.لا أعتقد أن المصمم يقصد بهذا الموقع القلب! لا يهم. الإسكيرت ينزل إلى ما بعد منتصف الساقين..ابيض عليه ورود حمراء مبعثرة حذاؤها اسود لامع بكعب عال وتتمنطق بحزام جلدي رفيع اسود لامع هو الآخر وقد جعلت القميص محشيا داخل الإسكيرت وعلى رأسها غطاء من نفس قماش الإسكيرت،خصلات من شعرها تسللت من مقدمة الرأس أعلى الجبهة وعلى الجانب الأيمن من الوجه.

مرتاحة تماما في القمرة..لوحدها.. ولكن كيف تجري الأمور هنا؟ عربة شبه خالية وأنا لا أجد مكانا رغم وجود رقمي على ديباجة القمرة! يبدو أنني أطلت

التحديق في الفتاة سهوا فقامت بتعديل جلستها بأن أسندت ظهرها على مسند الأريكة خلفها فأخفاها عني باب القمرة فيما عدا ساقيها.

إنتبهت إلى أنني واقف منذ تحرك القطار، وبدأ التعب يزحف على أوصالي..أجلس إذن..لكن أين؟لا بأس،على أرضية الممشى فهي نظيفة.جلست في مكاني متشبسا بحقي في الرقم المكتوب على الديباجة المثبتة

على باب القمرة،أستندت إلى جدار العربة وأنا جالس وأمامي باب الغرف نصف المغلق،لا أرى من الفتاة سوى الساقين.الأريكة المقابلة لها خالية بلا شك ومع ذلك فنا أجلس على ارضية الممشى!! عبر بعض المارة

أمامي دون أن يعيرونني أدنى إلتفاتة..لا يهم. حاولت إلهاء نفسي بتصفح المجلة وأنا جالس، أرفع نظري بين الفينة والأخرى إلى الفتاة لعل شيئا ما يحدث فأجد الساقين. ساقان تنتهيان بقدمين رقيقتين يحتويهما الحذاء

الأسود في إحكام، أحس كأنها تنظر إلي من خلال القدمين. هل تتحداني؟ ولم؟؟ مظهري لا ينم عن عداء محتمل بل بالعكس يفترض أن تتوخى فيَ شاب مثقف مهذب..أم هو عداء المرأة للثقافة؟؟ القطار ينطلق ومازلت

جالسا في مكاني امام القمرة، برز فجأة من القمرة المجاورة الشرطي الثاني، إستدعاني..أظنه يريد إستضافتي معه.. كدت أن أهرول إليه..لا بد أنه لاحظ فيَ سيما المثقفين..سألني عن أمري، أوضحت له الحال، لم يدعني إلى الدخول.. ياللخيبة..إن الشرطيين والنساء سيان في أمر العداء للثقافة والمثقفين.

دخل الشرطي إلى قمرته وعاد يحمل سجادة صغيرة أعطانيها لأفترشها شكرته بحرارة وفرشت السجادة حيث أجلس وجلست عليها بادئ السرور..أفرح لأني أجلس على سجادة في ممشى القطار! لا بأس على القل قد تحسن موقفي أمام صاحبتي المنفردة بالقمرة..

أها...الآن جاء دور النعاس الذي لايقاوم.كيف أنام وأين؟؟لابد من المقاومة.حركة رفيقتي أعني حركة ساقيها سكنت يبدو أنها نعست أيضا. بعد برهة وقفت صاحبتي أشعر كأن كعب حذائها يدوس مكانا ما في جسمي، توجهت إلى النافذة الزجاجية بإطارها الخشبي، اولتني قفاها.. إنه قفاها بالتأكيد بدأت تعالج النافذة لتفتحها بجذبها من مقبضها من أعلى لأسفل ليتجدد الهواء، وبينما هي تعالج النافذة المستعصية باغتتها النافذة منزلقة من يدها إلى أسفل فاندفع تيار قوي من الهواء إلى القمرة في شكل دوامة أسقطت غطاء رأس صاحبتي.. فرفعت يديها بتلقائية إلى رأسها لكن الهواء المندفع

متواطئا معي غافلها فطار الإسكيرت إلى أعلى وطار معه النعاس. لا يصح- تأدبا- أن أنظر إليها في هذا الوضع لكن عيناي خذلتاني فلم تطرفا.

سيطرت الفتاة على كل شئ في زمن وجيز، تأكدت أنني رأيت ما حدث لها اغلقت باب القمرة الذي كان نصف مفتوح..أنا المعني بالأمر لاشك.حسنا الآن وبعد أن إنقطع الرجاء تماما في القمرة يمكن أن أنام على سجادتي، إستلقيت وتوسدت الكتاب والمجلة.. المثقف يتوسد كتبه..نعم.. ونمت.

أيقظني الكمساري ومعه الشرطي. وقال لي معتذرا وأنا أفرك عيني:

-نأسف يا أستاذ.ففقد سقط إسمك سهوا عن الرقم المكتوب على الديباجة تفضل بالدخول.

غير معقول! اخيرا؟ ومع رفيقتي المنفردة بالقمرة؟ إبتسمت بصدق وأنا اطرق باب القمرة برفق، فتحت رفيقتي الباب وإبتسامتي مازالت في مكانها.إجتهدت كي لا أبدو شامتا.

إختلطت المفاجأة بالدهشة عند الفتاة وهي تقابلني وجها لوجه، تحدث إليها الكمساري شارحا اللبس الذي حدث وانصرف مع الشرطي الذي أعدت إليه السجادة وشكرته ثانية. إستقر كل منا في أريكته مقابلا لرفيقه ندعي عدم

الإكتراث للآخر، أخفي كل منا وجهه خلف صحيفته... نقرأ... تسللت بنظري من فوق صحيفتي متفرسا في الوجه الجميل المنهمك في القراءة. رفعت هي وجهها فجأة تجاهي فدفنت رأسي بسرعة في صحيفتي. وعدنا.. كل إلى إلى خلف صحيفته. ثم جاء دوري وغافلت الفتاة فضبطتها مخرجة نصف وجهها من جانب الصحيفة مسترقة النظر إليَ.بسرعة غطت وجهها لكني لمحت شبه إبتسامة على شفتيها. طرحت الفتاة صحيفتها جانبا في خطوة جديدة، وعمدت إلى كيس حاجياتها وأخرجت منه كوبا معدنيا وخرجت من القمرة.. أظنها عطشى عادت بعد حين بالكوب فارغا.. لم تجد الماء.. جلست بائنة الإستياء. فلأناور إذا..قمت ومن دون أن أتحدث إليها أخذت الكوب وخرجت من فوري وإحتلت على الأمر حتى عدت بالماء، ناولتها الكوب ملئ بالماء أخذته وشكرتني دون أن تنظرإليَ. أخرجت من كيسها قطعتي برتقال مدت إليَ إحداها، وهي تقول:

- تفضل يا أستاذ. اخيرا تحدثت إلي.. أحسست بأنني أعطيت أشياء أخرى كثيرة مع البرتقالة. تحدثت إليها..

حذرا في البداية..ثم مطمئنا.. وعندما آنست منها إهتماما بما أقول إنطلقت في الحديث، عن السفر والحياة والموسيقى المسرح.. سوفوكليس الإغريقي والفاضل سعيد، وحديث عن المرأة والمجتمع والمساواة.. الثوب.. والموضة

، تبسمت صاحبتي..ياه.. لم أكن أعرف أنني متحدث بارع إلى هذا الحد. تكرر إعطاؤها لي برتقالة.. أتيت بالمزيد من الماء.. ياه.. الأمور قد إستقامت مع رفيقتي وإنتابني إحساس بالثقة والجرأة فقلت بعد فترة صمت قصير بيننا:

- بالمناسبة..تجديني آسف لموقف النافذة،أرجو ألا تكوني قد أسأت الظن فيَ عندما.... فقاطعتني قائلة:

- الموقف عادي ولا حرج في الأمر. بل بالعكس فقد وجدت فيك شهامة.

- شهامة؟؟ في أنا؟؟ فقالت: نعم عندما إحتجت بشدة للماء وأتيتني به دون طلب مني.

يا الله ألم أقل لكم أنني مستبشر هذه المرة. أنا شهم... هي قالت ذلك.. بدأت أحس بإحساس لم يتبلور بعد

تجاهها.. ومن قال أنه لم يتبلور؟ ألم تقل لي هي نفسها أنني شهم؟ هذه علامة رضا وإعجاب.أي نعم

إعجاب.أنا في حضرة معجبة،يا سلام.. دخلت حياتي إمرأة أخيرا.المدهش أن الأمور سارت بتسارع غيرعادي إجتاحني أحساس غامر بالحبور جعلني أتكئ على مسند الأريكة مبتسما مع نفسي فيما بدأ القطار يبطئ

من سرعته قبل أن يصفر مؤذنا بوصولنا إلى محطة جديدة، ليت محطة النهاية لا تأتي. بدأت رفيقتي ترقب حركة تباطؤ القطار وظهور معالم المحطة من النافذة حتى توقف القطار تماما، قامت رفيقتي وسوت من هيئتها ثم أمعنت النظر من النافذة في وجوه المستقبلين أخذت كيس حاجياتها بيدها، هنا تدخلت بشهامتي المعترف بها وقلت لها:

- لا داعي لأن تنزلي إن كنت تريدين شيء من المحطة يمكن أن أذهب وآتيك به. استدركت صاحبتي قائلة:

لأشكرا لك يا أستاذ حقيقة لم أخبرك بأنني نازلة في هذه المحطة، فزوجي يعمل في هذه المدينة وينتظرني لاصطحابي إلى المنزل، مع السلامة يا أستاذ. فرصة سعيدة. مدت يدها مصافحة مودعة ثم خرجت من القمرة بنفس خطواتها الواثقة، تابعتها بنظري حتى نزلت من العربة، عدت بنظري وأفكاري وظنوني إلى داخل القمرة التي أنا الآن فيها وحيدا تماما، لا أصدق نزول صاحبتي بل هي متزوجة هنا، وزوجها ينتظرها. درت بنظري في أرجاء القمرة الخالية إلا مني. ستقر نظري على كوب الماء المعدني الممتلئ. لملمت أغراضي القليلة في يدي، ثم عمدت إلى كوب الماء وشربت كل ما فيه وضعته فارغا ثم نظرت إليه مليا وغادرت القمرة. .

***